صور حجازية « طبق الأصل »

الاعـــــدام !

للأستاذ علي الطنطاوي

سيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : هذه وحشية ، هذه همجية ، هذا لا يكون في القرن العشرين ، قرن الحرية والنور ، هذا يأباه فلاسفة العالم المتمدن ؛ السيو فلان ، والمستر هلان ، والهر جرمان ، والسنيور ايطاليان

ويقول الحق : هـذا واجب ، هذا حسن ، هذا دواء القرن العشرين ، قرن الاستعمار والاستعباد ، وإبادة الضعفاء ، واغتصاب الحريات ، هذا ما أمر به الله ، وجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر امرؤ مسلم : أيتبع أمر الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم يتبع رأي السيووات والساتير ، والهررة والسناتير ؟!...

سمعت — وأنا في مكة — أنّ أمراً سيقع بعد صلاة الجمعة (آخر المحرّم سنة ١٣٥٤) فجعلت أرقب وأنتظر ، لا أحب أن أسأل أحداً ، كيلا تفوتني لذة المفاجأة وروعة الحادث . ثم إن الرجل في الحرم كالسائح في أرض الله ، لا يدري من يسأل ؛ ولا يعرف من يخاطب ، وبينا هو في « الهند » يسمع لغة الهنود ويرى أزياء الهنود ، ويبصر عادات الهنود ، إذا به ينتقل بعد خطوات الى « نجد » فاذا هو بين النجديين ، وإذا كل شيء من حوله عربي نجدي ، ثم يخطو فاذا هو في مصر ، بين المصريين ، يسمع حديث مصر . في لهجة مصر . . . فكأن الدنيا كلها قد استقرت في الحرم ، تستظل بالبيت العتيق ، وتطوف به ، وتجثو خاشعة من حوله ، فلا يحس الرجل وهو فيه بأن وراءه دنيا ، أو ظاهر جدرانه حبًّا من الناس ، أو عامراً من الأرض

حتى إذا قضيت الصلاة ، وانفتل الامام ، ابتدر الناس أبواب الحرم يستبقون الى شارع الحكومة — وهو في أسفل أجياد ، يمتد من شمال الصفا حتى يجاوز باب ابراهيم — فلم تكن إلا هُنَيّات حتى امتلأ الشارع على سعته بالناس ، ولم يبق فيه موطئ قدم ، فجعلت أزاحم الناس لأخلص الى الساحة ، فلا أتقدم خطوة ؛ ومن لي باختراق هذا السد الهائل من الأجساد ، واجتياز هذا الخضم من الناس ؟ فأيست واحتسبت معصيتي في فوت المشهد عند الله ، وهممت بالعودة الى الحرم ، وإذا أنا بالشيخ يوسف ياسين (سعادة سكرتير جلالة الملك) فتعلّقت به وقلت :

— والله لا أدعك حتى تبلغ بي الساحة

فاعتذر وتملّص ، فما نجا ولا تخلص ، وكيف يتملص مني وقد كنت كالغريق وجد سفينة النجاة ، أفيدعها بعدما وجدها ؟ فأجاب على كره وسار وأنا أتبعه ، والبحر ينشق له كأن بيده عصا موسى . . . وما الناس لا يتفرقون من بين يديه حذرين خائفين ، وهو سكرتير الملك ؟ حتى إذا بلغ بي درج القصر عاد لشأنه وتركني ، فصعدت فلم أجد مكاناً أقف فيه ، ووجدت الغرف كلها ملأى بالموظفين والمقربين والحاشية ، فقادوني الى غرفة فخمة أعدت للأمير فيصل (ابن الملك ونائبه على الحجاز) ولأهل البيت : بيت الملك

ولم لا يفعلون وأنا ممن يكتب في الصحف ، والاكرام إنما يكون لمن يكتب في الصحف ، أو يملك سبيلاً من سبل الدعاية ، والحذر إنما يكون من هؤلاء . فذكرت قالون وزير لويس السادس عشر ، حين رأى أن خير طريقة لتقوية الحكومة الضعيفة ، وإغناء الخزانة الفقيرة ، أن تقيم الحكومة الولائم الفخمة وتنفق الأموال الطائلة ، تشترى ألسنة المادحين ، وأقلام الكاتبين حتى يقال : إنها غنية . . فقالوا : إنها غنية ، لأنهم أكلوا خبزها ولكن الخزانة قالت : إني فقيرة ! وقال التاريخ : إن قالون وقيع ...

* * *

ووقفت في النافذة بين فتية من آل البيت ؛ فيهم ابن للأمير فيصل في نحو الثانية عشرة من عمره ، ما رأيت في لداته أنقب منه ذهناً ، ولا أصحّ جواباً ، ولا أحدّ ذكاء ؛ وأطللت على الناس ، وإذا هم أخلاط من كل جنس ولغة وزيّ ، فمن رجل عباية[1] على رأسه عقال أسود على صِماد أحمر[2] قد التحف بعباية رقيقة على ثوب أبيض ، وقد حلق لحيته كلها إلا نقطة واحدة من الشئون ، وهلالاً دقيقاً من تحتها ، كما فيه سف واحد من الشعر كأنما هو مروحة تدلت على صدره : سنة يتبعونها ما أنزل

(١) العباية : العباءة والرجل الجافي

(٢) الصماد : ما يوضع على الرأس دون العمامة أو العقال ، ويسميه الشاميون كوفية ويدعوه النجديون الصماخ

الله بها من سلطان ... وهذا هو النجدى

ومن رجل يلبس ثوباً رقيقاً فوقه رداء قصير (چاكيتة) من قماش هفهاف ، وعلى رأسه "قلنسية" (طاقية) بيضاء ، إذا مشى في الشمس تعمم عليها بلحفة بثقل الفراش ، يتقى بها شمس مكة الحادة المخيفة[1] وهو حليق اللحية صغير الشاربين ... وهذا هو الحجازى

ومن رجل وسخ الثياب ، ممزقها ، لا تدرى عن ثيابه ما لونهما وما هى ، وعلى رأسه حبل قد وضعه مكان العقال . . . وهذا هو الأعرابى

ومن رجل يلبس ثوباً متقن الصنع ، عليه عباءة جميلة شفافة وعلى رأسه عقال مذهب ، أو يلبس بدل الثوب حلة (بدلة) بيضاء وهو حليق اللحية ، إلا قليلاً منها يبقيه بمثابة الدلالة على أنه ملتح ... وهذا هو السورى . وأكثر السوريين فى الحجاز موظفون فى الوظائف الفنية ، وأقلهم تجار

ومن رجل على رأسه عمة ضخمة تخمة كعمائم السلاطين من آل عثمان — يوم كان لآل عثمان سلاطين ، وكان لسلاطينهم عمائم — وقد أرخى بين كتفيه عذبة طويلة ، وله لحية كثة مستديرة ، وشاربان طويلان ، أما ثيابه فقميص تحته سراويل بيض ، تبلغ الكعبين ... وهذا هو الهندى

ومن شاب حليق الوجه كله (على الأسلوب الأمريكانى) نظيف الثياب مهفهف قد ائتزر بمئزر (فوطة) لفها على خصره النحيل لفاً محكماً ، واجتزأ بها عن السراويلات ، وارتدى عليها رداءً قصيراً رقيقاً ، وربما بلغ ثمن المئزر من هذه المآزر خمسة الجنيهات أو أكثر ... وهذا هو الطالب الجاوى ، وما أكثر هؤلاء الطلاب فى مكة

ومن عبد أسود ، جعد الشعر ، أفطس الأنف ، ضخم الشفة ، عار إلا من خرقة تستر عورته أو بعض عورته ... وهذا هو الأفريق الأسود

ومن ... ومن أمم ربنا التى لا تعد ولا تحصى

وكان القوم مختلفين فى أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم ، ولكنهم تجمع بينهم هذه القبلة التى قطعوا السباسب ، وخاضوا البحار ، ليواجهوها ، ويقفوا أمامها ، ويتعلقوا بأستارها

* * *

ثم أقبل الجند ، وهم بثياب عربية . قد تمنطقوا عليها بمناطق الرصاص ، فاصطفوا من حول الساحة ، ثم أقبل الأمير فيصل فى موكبه ، يحف به طائفة من عبيده الأمناء الأشداء الأوفياء ، فصعد إلى الغرفة التى نحن فيها فجلس فى شرفتها الكبرى

ثم جئ بالرجل ؛ وهو قصير كز ساعد ، ما عليه إلا قميص واحد مشقوق الجيب ، وكان أصفر قد دمع وامتقع لونه ، وفاض من وجهه الدم ، بمجوعة يداه إلى قفاه ، قد مات من قبل الممات . يقوده جندى آخذاً بتلابيبه ، حتى إذا بلغ به الساحة خلاه فهوى جاثياً على ركبتيه ، فلبث لحظة ما يفتح عينيه من الجزع ، ثم ارتدت إليه نفسه بعد حين ، فجعل يقلب عينيه فى الناس فيرى كل شىء من حوله ميتاً لا حياة فيه ، فكأن الدنيا قد أظلمت فى ناظريه حين يئس من الحياة ، كبيت أطفئ فيه المصباح فى ليل داج

وجعل يرى الشمس مشرقة ، ويرى الجند جاثين ذاهبين ، يدلون بشاراتهم وسلاحهم ، ويرى القصر قائماً يحمل سطوة الحكومة وهيبة السلطان . . . ولكنه لا يرى من ذلك كله إلا صوراً مطموسة ، تطلع عليه من خلال حلم عميق ... ثم تضاءلت هذه الصور واختلطت ، ولم يبق قيد ناظريه إلا الكعبة ، يبصرها من باب الحرم ، فجعل يحرك شفتيه بالتوبة والاستغفار ويشير بسبابته إشارة التوحيد ، ثم أغمض عينيه وجرفه سيل من العواطف المتباينة فغاب فى ذهول عميق ، ولم يعد يفكر فى شىء

وجئ بالمجرم الآخر ، وهو عبد أسود ، ضخم الجثة ، غليظ الشفتين ، كثير الشعر ، كأنه غول هائل ، أو وحش مروع ،

(١) من أصيب بضربة الشمس فى مكة فانما أصيب بالموت المحقق ، ومع ذلك فقد كان معنا فى رحلتنا الكشفية الى الحجاز ، شاب نجدى اسمه حبيب ، ما رأيته ستر رأسه ، فى بادية ولا فى حضر ، فقلت له : ويحك ألا تخشى ضربة الشمس ؟ فقال لى ما نصه : والله لو وقفت الشمس هنا أربعين صباحاً (ونقر على صدغيه) ما خلصت الى داخل . . . فعلمت حينئذ كيف مضى أجدادنا لفتح العالم . .

وقد قيده الجند ، وجمعوا يديه إلى عنقه وأقبلوا يمسك به ستة منهم وهو يصاولهم ويقاومهم ، ويزمجر ويصرخ صراخا شديداً ، وهم يزبرُونه ويقرّعونه حتى انتهوا به إلى الساحة ، فاجتمعوا عليه فأضجعوه على سرير من الخشب وشدوه اليه شداً وثيقاً ، وأقاموه بحيث يرى رفيقه ويبصر مقتله

* * *

وكأن العبد قد اهتمجت نفسه ، وأدركه الخور ، فسكت وسكت الناس وعلقوا أنفاسهم وشخصوا بأبصارهم

وجعلت أطل من الشباك أبحث عن الجلاّد فلا أرى أحدا ، وأفتش عمن يتلو حكم الاعدام فلا أجده . وأرى سمو الأمير يشير بيده ، فاذا عبد ضخم يبرز من بين الصفوف ، وبيده سيف صقيل مسلول ، فيأتى الأعرابى من ورائه وينخسه بالسيف ، فينتبه ويعد عنقه مستطلعاً ، فيهوى العبد بالسيف على قذاله ، ثم يحزّ به الرأس حزّا ، فلا تمضى ثوان إلا والرأس قد بُتر عن الجسد ، من القذال إلى أعلى الصدر ، وطاح ثلاثة أمتار قبل أن تند من المقتول صرخة ، ونفر الدم من عنقه كأنه نافورة ، ومال الجسد قليلاً قليلاً حتى هوى ، وهويت أنا قبل هويه وكفاى على عينى ، ولم أعد أشعر بشىء

ولما صحوت قيل قد فاتك المشهد الهائل : قطعت يد العبد ورجله من خلاف

قلت : ويحكم ، ماذا تقولون ؟

قالوا : قطعت يده ورجله ، ألم تتل قول الله عز وجل : « إنما جزاء الذين يحاربُونَ الله ورسولَه ويسعَونَ فى الأرض فَساداً أنْ يُقتّلُوا أو يُصلّبوا أو تُقطّعَ أيديهم وأرْجُلهم من خِلاف أو يُنفَوْا مِنَ الأرض » . أما إنه لولا هذا ما بلغنم أرض الحجاز سالمين . وما العهد السابق ببعيد ، أفلا نستحيي بقتل واحد أوائنين الناس جميعاً ؟ قلت : بلى والله ! صدق الله العظيم : « ولكم فى القِصاص حياة »

دمشق — علي الطنطاوي

٥٠٣٢